جامعة سيدي محمد بن عبد الله
كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر- المهراز
فاس

مسلك الدراسات العربية
مجزوء: الفلسفة
الفصل: الثاني
الأستاذ: ادريس الذهبي

علاقة الأدب بالفلسفة

جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس
UNIVERSITÉ SIDI MOHAMED BEN ABDELLAH DE FES

إعداد: الدكتور إدريس الذهبي

السنة الجامعية:
1440 /1441هـ
2019/2020م

علاقة الأدب بالفلسفة

1. فوكو قارئا روسيل: الأدب باعتباره فلسفة:

لقد خصص **فوكو(Foucault)** في عمله مكانا استثنائيا للأدب الذي اعترف بأن له وضع الدليل النظري: يشهد على ذلك بنزع خاص، كتابه **الكلمات والأشياء** (Les Mots et les choses) الذي يوحي بعنوانه، مباشرة، بقضايا الأدب. ما فعله فوكو أكثر من تفكير في الأدب، فهو عمل مع الأدب: ما كان يشغله هو أن يستخدمه استخداما نظريا أكثر من أن يصوغ للأدب نظريته. كتابه عن ريمون روسيل (R. Roussel) الذي نشره **ولادة العيادة** (Naissance de la clinique)، سنة 1963، أي بعد سنتين من نشره **تاريخ الجنون** (Histoire de la folie)، يجيب عن هذا الاهتمام الأساس، ويمثل مرحلة مهمة في بحثه الشخصي. تكلم ميشال ليريس (Michel Leiris) عن "مشروع استكشاف مناطق عذراء في الفكر تتصل به كتابات روسيل"[1]. اعتبر فوكو في المنحى ذاته، ظاهريا، أنا لا أعيب اللغة التي كرّس روسيل حياته من أجلها، قيم فكرية، وحاول استخراج دلالاتها. ولكن، من القراءة التي قام بها انطلاقا من هذا الافتراض، ينبعث درس حقيقي في الفلسفة.

UNIVERSITÉ SIDI MOHAMED BEN ABDELLAH DE FES

2. حالة روسيل المرضية ومرض اللغة:

لماذا اختار فوكو أن يخصص كتابا كاملا لروسيل، المتأدب العنيد والهامشي، الذي كان من الأجدر أن يعرف من خلال تصرفاته، كرجل ثري غريب الأطوار[2]، لو لم ينقذ السورياليون، وليريس من بعدهم، آثاره من النسيان، في حين أن هذه الآثار، في أثناء حياة **"مؤلفها"**، لم تستقبل إلا باللامبالاة أو الاحتقار؟

يبدو الجواب عن هذا السؤال بديهيا: إذ أثير الاهتمام به، فيفترض أن يكون ذلك بسبب الشخص ذاته الذي يبدو أن خارج رأسا من الجو الذي وصفه فوكو في كتابه **تاريخ الجنون**(Histoire de la folie) أكثر مما هو بسبب مؤلفاته. كان روسيل، باعترافه الشخصي، "مريضا عقليا" يجب أن يصنف، في أغلب الظن، في فئة الأدباء المجانين.

---

[1]- انظر: Michel Leiris, ''documents sur Raymond Roussel,'' Nouvelle revue Françoise, no. 259 (avril 1935). ثم أعيد نشره في: Michel Leiris,Raussel l'ingénu, explorations (Fontfroide-le haut: Fata Morgana, 1987), p.20.

[2]- أحصيت هذه المغامرات في حياة ريمون روسيل(Vie de Raymand Roussel) الخرافية لكاراديك، انظر: Françoise Cardec. Vie deRaymand Roussel (1877 – 1933)(Paris: J-J. Pauvert, 1972)

في كتابه **كيف كتبت بعض مؤلفاتي** (comment j'ai écrit certaine de mes livres) ، الذي يعد بمثابة اعتراف، وقد نشر بعد وفاته، أعاد روسيل نشر المقطع الذي خصه به طبيبه النفسي بيار جانيه (Piere Janet) في كتابه **من القلق إلى النشوة** (De L'Angoisse à l'extase) الذي صدر سنة 1926: فقد عُرض فيه تحت اسم شخص من أشخاص قصصه مارسيال (Martial)، في رأي جانيه (Janet) أعمال **روسيل** الأدبية كانت، بسبب طابعها الاستحواذي، ظاهرة مرضه بامتياز: وما ينطوي عليه هذا التشخيص، كان ضمنا، تحديدا للأدب ذاته كنتاج مرضي أو كخدعة، في هذا المنظار، جنون روسيل، كان أولا في إصراره في أن يكون كاتبا، وأن يقلد، خياليا نشاطا أدبيا، كبديل عن أشكال أخرى لم يكن قادرا على إشباعها[3].

لقد شرح جانيه التلبس بهذا الدور بأنه ثبات مرضي لحالة عقلية عاناها مارسيال أول مرة عندما كان في سن التاسعة عشر: كان يكتب آن ذاك "البديل" (La Doublure) بحماسة قادته إلى نوع من النشوة. هكذا كان نشاطه الأدبي يتوافق مع بحثه عن اكتفاء فرعي كتعويض عن رفضه للواقع. تقرير جانيه عن "حالته المرضية"} ينتهي هكذا: "لمارسيال مفهوم للجمال الأدبي مثير للاهتمام جدا، على الأثر الأدبي ألا يتضمن أي شيء واقعي، أي ملاحظة عن العالم، أو عن الأرواح، لا شيء سوى تركيبات خيالية تماما: إنها أفكار عالم فوق إنساني. النشوة الحقيقية مع جمود ولا مبالاة تامة، وحياة وشعور بالسعادة خارج الوجود الإنساني ستتخذ حتما شكلا دينيا وتقود إلى حياة إلهية، حياة في الله، حياة إله"[4].تعود هذه الإشارة الأخيرة إلى أطروحة جانيه المركزية: النشوة هي جواب على قلق يكون حقيقتها ويجعل منها هربا من وجه الواقع. يمكن أن نرى هنا الخطوط الرئيسية لنظرية التسامي، ولكن من دون العودة إلى مقولة اللاوعي بالمعنى الفرويدي، لأن جانيه كان قد أحل مكان

---

[3]- إليك ما يمكن أن نقرأه في هذه العلاقة عن حالة روسيل: "إنه يعمل بطريقة منتظمة خلال عدد معين من الساعات في النهار، من دون أن يسمح لنفسه بأي إخلال في هذا النظام، بجهد كبير وغالبا بتعب شديد، لإنشاء آثار أدبية عظيمة، فهو يقول إني أنزف دما، لدى كل عبارة هذه الآثار الأدبية التي لست في مجال تقييما، لم تحظ حتى الآن بأي نجاح، فهي لم تقرأ، وإذا استثنينا بعض دوي الاطلاع الذين اهتموا بها، فهي تعتبر أن لا شأن لها، ولكن المؤلف يحتفظ إزاءها بموقف فريد: لا يكمل عمله بمثابرة لا تعرف الطلل، فحسب، بل بقناعة مطلقة لا تتزعزع بأن قيمة آثاره لا حدود لها. إن ثقة مؤلف بقيمة آثاره، وإبلاغ الأجيال القادمة عن ظلم معاصريه، كلها أشياء طبيعية وإلى حد ما مشروعة، ولكن يبدو، مع ذلك أن قناعة مارسيال تعرض بطريقة غير طبيعية، فهو ينسب لمؤلفاته قيمة لا حدود لها، ولا يزعزعه الفشل الفاضح، ولا يقبل لحظة أن مبرر الفشل هو ما يتضمنه من نواقص، ولا يقبل أبدا أبسط نقد ولا أقل نصيحة؛ له إيمان مطلق بالمصير المعد له: "سأصل إلى قمم هائلة، وأنا ولدت من أجل مجد ساطع. قد يطول الزمن ولكن سيكون لي مجد أعظم من مجد فيكتور هوغو أو نابوليون..."انظر: Raymond Roussel, Comment j'ai écrit certains de mes livres (Paris: A. Lemerre 1935). Pp. 175-1760 مسكين مارسيال هذا!

[4]- المصدر نفسه، ص:183، بداية هذا المقطع أعاد نشرها بروتون (Breton)الذي يبدو أنه أخذها على محمل الجد، في مدخل **أنطولوجيا الفكاهة السوداء** (Anthologie de l'humour noire) الي خص به روسيل.

هذه المقولة فكرة الشعور الباطن[5] (Subconscient). الخطوط الكبرى لهذا التحليل تكشف بسهولة: لم يكن الأدب بالنسبة إلى روسيل سوى قناع، وإذا ما رفع القناع نجد الإنسان في كل مشكلاته، كما حاول أن ينساها بإقامته في عالم التخيل المختلق الذي كان يسمح له بالتخلص من ضغوط الواقع.

إن هذا النمط من التأويل هو الذي رفضه فوكو متبعا طريقا معاكسا، إذ بدل أن يشرح الآثار الأدبية بالإنسان، معرضا إياها للانتقاص من قيمتها، فهو يعيد للآثار كل قيمتها. يعني هذا أن آثار **روسيل** يجب أن تؤخذ كحيز لانبثاق حقيقة، ليس بمعنى الحقيقة النفسية للرجل و"لمرضه"، ولكن بمعنى حقيقة أدبية تماما، منتسبة إلى الأدب كأدب، وربما محددة إياه[6]. إذا كان روسيل مهووسا بالأدب، ومسكونا بالحاجة إلى الكتابة التي كرس لها ثروته، وحتى حياته، وإذا جعل لوجوده عملا يعيد إنتاج الإجراءات المجهزة لكتابة مؤلفاته، لم يكن ذلك إذن لإشباع ميل شخصي يمكن أن يشرح بأوضاعه النفسية الخاصة التي قد يعبر عنها بالحرمان أو القلق: بل لأن آثاره، وإلى حد ما، حياته أيضا، بعد آثاره، أو كجزء منه، كانت حاملة ما أسماه فوكو "تجربة"[7].لم تكن تجربة روسيل فحسب. ذلك أن هذه التجربة كانت تجربة الأدب باعتبار أنه يعبر عن علاقة جوهرية باللغة[8]. لذلك فإن الصدع الذي لا شك أنه يخترق كل آثار روسيل، ولأن هذه الآثار استمرت مقصرة بالنسبة إلى ذاتها، فهو لا يمكن أن يفسر بحالات الضعف التكويني لروسيل كشخص، حتى ولو وجدت هذه الحالات، وهذا موضوع آخر. ولكن، في ما يتعدى شخص روسيل، فإن هذا الصدع كان يعبر عن تكوين اللغة بالذات: الخط الذي يقسم اللغة في صميمها بحيث يجعل منها "شمسا مغلقة"، أي مكانا لمحاولة ضرورية ومستحيلة في آن واحد، محاولة التعبير عن الأشياء بكليتها.

إذا تابعنا فوكو يجب ألا نقول إذا أن اللغة مريضة في روسيل، لأنه كان يمكن أن يستخدمها لغايات شخصية بهدف التعويض خياليا عن النقص الذي كان يسيطر عليه كما

---

[5]- انظر: Elisabeth Roudinesco, La Batuille de cent ans: Histoire de la psychanalise en France (Paris: Edition Ransay, 1982-1986), voi, l.pp.244 et sp.

[6]- هذه النقطة تم التوسيع بها بشكل خاص في الفصل الأخير في كتاب فوكو وعنوان الفصل الشمس المسجونة Le Soleil enfermé ، وهو تعبير لابد أن يذكر بتاريخ وآثار الرئيس شريبر Schreber. نص فوكو المكتوب بشكل حوار، ينطلق من تعبير: "إنه مريض مسكين، يقول جانيه، وذلك لكي ينقضه، انظر Michel Foucult. Raymond Roussel, le chemin (Paris: Galimmard.1963) p.195. بهذا التعبير كان يستعيد المسيرة الخاصة للعالم النفسي الذي كان يرى أن "الأثر الأدبي والمرض متداخلان، ولا يُفهم الواحد من دون الآخر"، المصدر نفسه، ص 201.إن هذه الثلة من الخيوط هي التي تولى فوكو تفكيكها.

[7]- هذا التعبير يذكرنا بالقسم الأخير لكتاب بلانشو(Blanchot) الفضاء الأدبي (L'Espace littéraire)، الأدب والتجربة الأصيلة (La Littérature et l'expérience originale). وهو يذكر أيضا بباتاي وموضوع التجربة الداخلية (Expérience intérieure).

[8]- "في عمق الأثر، أو بالأحرى، في عمق تجربة اللغة كما عاناها روسيل نرى انفتاح فضاء حيث النشأة محذوفة منه... إدخال الأصل في المتاهة ليس نتيجة مرئية للمرض (آلية الدفاع ضد النشاط الجنسي) ولا التعبير المقنع لمعرفة باطنية (إخفاء الطريقة التي بها تتولد الأجسام بعضها من بعض)؛ إنها تجربة راديكالية للغة تعلن أنها ليست أبدا معاصرة الشمس أصلها"، انظر: Foucult, Ibid, pp.203-205.

شخص عن ذلك أحد الأطباء النفسيين، بل إن روسيل بالأحرى كان مريضا باللغة ذاتها، إنه مرض يظهر الأدب عوارضه بشكل مثالي:

"هذا الفراغ الشمسي ليس الشرط النفسي للأثر الأدبي (وهي فكرة لا معنى لها)، وليس موضوعا مشتركا بينه وبين المرض. إنه فضاء لغة روسيل، الفراغ الذي منه يتكلم، الغياب الذي بواسطته يمكن أن يتواصل الأثر الأدبي والجنون"[9].

لم يكن المقصود إذا شعور قلق أمام الأشياء أو أماما الكلمات، بل قلق اللغة ذاتها. اللاعقلاني عند روسيل، ألاعيبه اللفظية، اجتهاده المهووس، ابتكاراته غير المعقولة، تتواصل من دون شك مع منطق عالمنا[10].منطق عالمنا هو ما يجعلنا نعترف بأن العالم منطقي من خلال أننا نتكلم عنه، وأننا، إذ نتكلم عنه، نقول إنه كذلك: ولكن "اللامعقول" الذي أعلنه **روسيل** بشكل منهجي، لأن ما من جنون كان أقل تشويشا من جنونه، أظهر الوجه الآخر للمعقول، إذ صح التعبير، فعندما قلب العلاقة التي نقيمها مع اللغة، وفي الآن ذاته مع العالم، أظهر الوجه الآخر، أظهر لا معقول عقلنا، مشيرا إلى الثمن الذي لابد من دفعه لنتكلم عن الأشياء "بشكل معقول"[11].

نفهم، بعد ذلك أن الدراسة التي خصصها فوكو لروسيل، والتي لم تفهم فهما جيدا بشكل عام، وقد همشت بالنسبة إلى مجمل آثاره، تسمح لنا بإدراك البنية العامة لهذه الآثار: هي التي تقيم رابطا بين كتابه **تاريخ الجنون** وكتابه **الكلمات والأشياء**: **تاريخ الجنون** الذي يجيب عن السؤال التالي: ما الذي أدى إلى منح الشكل والمعنى لمؤسسة المرض العقلي؟ وذلك ضمن العلاقة مع القضايا العامة لتاريخ العقل، و**الكلمات والأشياء** الذي يتناول واقع العقل لذاته هذه المرة، فيعيده إلى الظروف التاريخية لإمكانية وجوده، وذلك ضمن العلاقة بالسؤال التالي: ما أدى إلى أن يعد العالم معقولا وإلى أن يدرس على هذا الأساس؟ هكذا كان ل"جنون" روسيل

---

[9]- المصر نفسه، ص207.

[10]- المصدر نفسه، ص209.

[11]- "إذا فصلنا آثار روسيل عن هذا الفضاء (الذي هو فضاؤنا)، لا نعود نجد فيها سوى المهارات الجريئة لما لا معنى له، أو الزخارف الباروكية للغة باطنية، ترمي إلى قول "شيء مختلف". وعلى العكس، إذا وضعناها في مكانها، يبدو روسيل كما حدد نفسه هو: مبدع لغة لا تعبر إلا عن ذاتها، لغة في غاية البساطة في كيانها المزدوج، لغة اللغة، حابسة شمسها الخاصة في عجزها التام والمركزي. لا شك أنه يجيب (لكي يكون لهذه التجربة معنى)، من كل الجهات، في ثقافتنا وقبل أي لغة، إعلان تجربة تقلق وتنتعش، تختنق وتستعيد الحياة بسبب قصور الإشارات (اللغوية) المدهش. قلق الدال هو هذا الذي يجعل من عذاب روسيل الولادة المنفردة لما هو أقرب إلينا في لغتنا نحن. ما يجعل من مرض هذا الرجل مشكلتنا"، المصدر نفسه ص210.

طابع نموذجي باعتبار أنه سمح بالانتقال من تاريخ اللاعقل إلى تاريخ العقل، طاردا لأشكال الممسوخة اللامنطقية التي تسكن عقلنا[12].

3. درس في الأنطولوجيا: عمل الكلمات:

كيف قرأ فوكو آثار روسيل وقد عرض لها كتابه تحليلا مفصلا؟ لقد تناولها انطلاقا من الفترة الوسطى لتطورها، ونواتها المركزية قد أعطيت في **انطباعات أفريقيا** (Impressions d'Afrique) في طبعه 1910 التي تعتمد على إيضاحات حول إعداد هذا النص من خلال إعلانات نشرت بعد وفاة المؤلف في **كيف ألّفتُ بعض كُتبي** (comment j'ai écrit certains de mes livres) حيث كشف **روسيل** عن "الطريقة" التي أعدها لتأليف نصوصه الروائية الخيالية.

تقوم هذه الطريقة، في مبدأها الأساسي، عل تحضير نصوص قصصية في محاكاة من حيث الشكل لبعض نصوص حول فيرن (Jules Verne) الذي كان يعلن روسيل أنه يكن له إعجابا شديدا، منطلقا من عبارات تخضع لتحولات، متلاعبا بأسجاع لفظية على طريقة جناسات. نذكر على سبيل المثل هاتين العبارتين:

Les Lettres du blanc sur les bandes du vieux billard

Les Lettres du blanc sur les bandes du vieux pillard

في العبارة "Les Lettres dublanc" (أحرف البياض) توحي بأحرف الطباعة المرسومة بالطبشور على أطراف سجادة لطاولة بيليارد. أما في العبارة الثانية، فهي تعني الرسائل التي بعثها رجل أبيض حول موضوع مغامر مسن والغزوات التي قام بها مع رفاقه. نتيجة تعديل دقيق، ظاهريا طفيف، "تافه"، كما يقال، ضمن السياق – حيث حرف (b) في Billard يصبح (p) في pillard– الدال (اللفظ) ذاته يحدث نتائج متباعدة في المعنى، في علاقة "بأشياء " تفصل بينها أبعاد شاسعة. إن عمل الكتابة عند روسيل يقوم على ملء الفراغ الذي تولد، بواسطة السرد القصصي ـ هذه الفجوة في الخطاب الناتجة عن انزلاق المدلول على الدال. تنطلق القصة من العبارة الأولى لتصل إلى الثانية، وذلك بالعمل على التماثل في ما يفصل بينهما، أي باللعب على مفاعيل المعنى التي يمكن أن تنتج عن مجرد

---

[12]- جيل دولوز(G.Deleuze) هو أحد القلائل الذين أعادوا إلى كتاب فوكو حول روسيل أهميته الحقيقية، ليس فقط في ما يتعلق بالقضايا الخاصة بالأدب، بل أيضا بالنسبة إلى سائر اهتمامات فوكو النظرية، انظر: Gilles Deleuze, Foueandi (Paris: Edition de minuit, 1986), p.105. انظر أيضا: Michel Foucult, "Les contribution de R. Bellour et de D. Hollier," dans Michel Foucult. Michel Foucult. Philosophe: Rencontre internationale. Paris.9.10.11 Janvier 1988. Des traveaux (Paris Editions du seuil, 1989).

تغيرات لفظية. هكذا، نتيجة تغيرات تكاد لا تدرك، تأخذ الكلمات بالتحرك، فتغير موقعها وهي تبتعد بالتدرج عن الأشياء التي كان يفترض أن تصوّرها. بهذه الطريقة، من حوادث لفظية تنتج في النهاية كل تفاصيل حبكة حقيقية، ديكورات، أشخاص، باختصار، ينتج ما ندعوه **"قصة"** حيث تبدو الكلمات أنها تتكلم عن أشياء[13].

ما يثير الاهتمام في "عمل" روسيل، وقد أحيل هكذا إلى مبدئه الأساسي، هو أولا الطابع الصبياني لهذه العلاقات المنظمة بواسطة جناسات، المنتجة لقصص غريبة وغير محتملة. نجد هنا علامات نشاط من لعب وهوس، من السهل جدا تفسيرها ب"مرض" روسيل. ولكن في الآن ذاته، وهذا هو الجانب الجدي للعب، هذه العمليات التي أحدثت تأليفات ذات دقة غريبة، تتوافق مع ما دعاه فوكو "تجربة اللغة": إن روسيل، بتحريكه الكلمات أولا، انتهى بأن زعزع استخدامنا للغة، بحيث أعاد طرح مسألة الكلام والكتابة. هذا ما كان قد فعله أفلاطون بتلاعب ألفاظ لا يقل غرابة ويكاد يكون سوريالية قبل السوريالية، وذلك في حواره كراتيل (Cratyle)، كذلك سوسير (Saussure) نعاصر روسيل تماما، راح "يلهو" بالجناسات التصحيفية (Anagramme)، حين كان يركز على أسس جديدة: علم اللغة المتميز عن العلوم اللغوية بالمفهوم التقليدي أي بتحديد اللغة بأنها تعبير مباشر عن معنى.

ما فعله روسيل إذا، وهذا ما ندركه إذا قرأناه بعناية، هو قلب المفهوم الذي نكونه بعفوية عن اللغة من دون أن نفكر فيه ما دمنا نستخدمها: أي اللغة التي تعبر عن الواقع، ناقلة إياه ومصورة إياه، وكأنها تعبر عنه تعبيرا حرفيا، كما لو كان هناك تعامل بين عالم الأشياء وعالم الكلمات، وكما لو أن الخيط الخفي في الخطاب ينطبق تماما على نظام الواقع، مرافقا سياقه، كما لو كانت الأشياء كما تعبر عنها الكلمات، وكما لو كانت الأشياء قادرة على أن تقول الأشياء كما هي.

ولكن، إذ يزيح **روسيل** الخطاب بالنسبة إلى ذاته، أي بزحل سلسلة الدال وسلسلة المدلول، الواحدة بالنسبة إلى الأخرى، فإنه في الآن ذاته، فرض ضرورة إعادة التفكير بشكل كامل في

---

[13]- وصف ميشال ليبرس بجلاء ساطع طريقة روسيل: " المقصود نزعة الاسمانية (Nominalisation) وهي مذهب فلسفي نشأ في العصور الوسطى ووجد امتدادا له وتطويرا في فلسفة اللغة الأنجلوسكسونية. هو موقف مناقض للموقف المثالي، ينفي وجود الكليات (Les Universaux) ويعتبرها أسماء لا غير سحرية، بحيث إن الكلمة تحدث الشيء وتفكيك سلسلة من أي عبارات (شيء ما يشبه استخراج ألغاز مصورة Dessins) (de rébus يقود إلى إعادة خلق للكون، إلى بناء عالم خاص يحل محل العالم المألوف. وبما أن النتيجة النهائية هي الوصف أو سرد أشياء أو أحداث خيالية. بشكل عام سلسلة ابتكارات أسطورية أخذت مكان الألاعيب اللفظية. يمكننا أن نفكر أن روسيل قد استرجع إحدى ممارسات العبقرية الإنسانية المغرقة في القدم والهامة: تأليف الأساطير انطلاقا من كلمات، أي نقل ما لم يكن في البدء سوى مجرد حدث لغوي إلى عمل دراماتيكي، انظر: "Compte rendu de comment j'ai écritcertains de mes livre" Nouvelle revue française، no 268 (janvier 1936).
أعيد نشره في: Leiris. Roussel l'ingénu. P. 38.

العلاقة بين الكلمات والأشياء، بل إنها في ذاتها واقع ذو وجهين، وإن هذين الوجهين ليس منسجمين بشكل آلي، إذ يدفع روسيل استخدام اللغة إلى الحدود القصوى، بحيث يعطي العلاقة بين الإشارة والمعنى شكلا شاذا، كشف أن اللغة ليست معدة لتقول الأشياء، أو بالأحرى، أن الأشياء التي تقولها، ليست بالضرورة الأشياء التي نفكر فيها. وفي الواقع، بدل أن يمتد شكل الخطاب بشكل متواز إلى واقع الأشياء بحيث يصورها، وهو فعلا لا يتعلق إلا بخيط، فإنه مهدد على الدوام بالانقطاع، كما يمكن أن يستمد من وصلات غير متوقعة: فهو بذلك قائم بزيادة وبتقصير في آن واحد بالنسبة إلى هذا الواقع الذي يفترض أن يعبر عنه[14].

بهذه الطريقة استطاع **روسيل** أن يروي قصصا، أي ببساطة، أن يثير مفاعيل معنى، ويطلق الرؤى الخارقة ل **انطباعات أفريقيا** ولوكوس سولوس(Locus Solus) انطلاقا من "تلاعب" بسيط على الحدود الصوتية للكلمات، تلك كانت بالضبط الوظيفة الفكرية للجناس: فهي تسمح بإزاحة المنطق الخاص للدال، مظهرة أنه بدل أن يتحول إلى مجرد ضجيج، بإمكانه أن يكون فاعلا في مضمون ذي مدلول، من دون الحاجة إلى جعل هذا المضمون يتطابق مع الوجود الفعلي لأي شيء.

إن محاولة **روسيل** بطابعها المحير والاستثنائي والهامشي، تبرز هذا السؤال: ماذا لو كان الأمر دائما هكذا؟ ماذا لو منا نتكلم إلا لكي لا نقول شيئا؟ أو بالأحرى إذا كان "قول شيء ما" عملية لا تقتصر على إعادة إنتاج دلالة معطاة مسبقا في الواقع؟ وماذا لو لم تكن الأشياء التي نقولها كما نميل في سهولة بالغة الاعتقاد مجرد أشياء، أشياء تقدم ذاتها ببساطة للخطاب الذي يتكلم عنها أو ينطق بها؟ وإذا كانت الأشياء التي نتكلم عنها والتي نعتقد أن لنا تأثيرا فيها لأننا نتكلم عنها، شيئا آخر غير أشياء نمثلها بصور، أي هذه العناصر من الواقع، أو هذه الأشكال من الوجود التي تنطبق عليها إشارات اللغة انطباقا حرفيا وهي تشير إليها؟

إن مسيرة **روسيل** الفكرية نموذجية، لأنها انطلاقا من عمل عنيف على أشكال اللغة، أفضت إلى تساؤل حول نظام الأشياء. يمكننا الكلام هنا عن مسألة أنطولوجية. ما هو الشيء ما هو البيار (لعبة البلياردو) Billard؟ ألا يمكن أن يكون مثلا، تيار (أي نهاب) Pillard وقد حذفنا من حرف ال P وأبدلناه بحرف (ب) (b) ؟ هل يمكن أن تكون في عالم الأشياء ـ في ما يتجاوز طابع الواقع الذي ننسبه إليها والذي تستمد منه ظاهريا معناه ـ صلات أكثر خفاء، إذ تجعلها تنسجم فيما بينها تحدث تحولات داخل بعضها بعضا؟ فيما أن الكلمات هي

---

[14]- بهذا المعنى يتكلم ميشال ليريس حول Nouvelles impressionsd'Afrique عن "نوع من التوالد الداخلي للنص"، المصدر نفسه، ص 57.

أيضا أشياء، لماذا لا تحدث الأشياء دلالات في ما بينها؟ يعرض الفصل الثاني المخصص ل **نثر العالم** من كتاب **"الكلمات والأشياء"** هذا الشكل من التأمل الفكري المتميز الذي قوضه المفهوم التمثيلي الذي يفترض علاقة معادلة دقيقة بين نظام الكلمات ونظام الأشياء، وفي الآن ذاته يحدد اللغة كنظام منطقي للمعنى، أو خاضع لضرورة المعنى، ليس أمرا مسلما به بتاتا: والأحكام المسبقة التي تدعمه ذات مهمة اختزالية، باعتبار أنها لا تحتفظ من اللغة إلا بما يؤدي فيها معنى، أو ما يبدو أنه كذلك، حاذفة ما يفيض عن شبكتها التمثيلية أو ما يمزق هذه الشبكة.

يطلق وضع اللغة في هذا المضمار سؤالا فلسفيا جذريا، لأنه يقود إلى السؤال: لماذا نتكلم عن شيء ما وليس عن لا شيء؟ وهذا يستدعي أيضا هذا السؤال الأكثر شيوعا: لماذا هناك وجود شيء ما بدل ألا يوجد شيء؟ من خلال مرض اللغة الذي أظهرته تجربة اللغة التي قام بها روسيل، ربما كانت الأشياء ذاتها "مريضة".

الشعر وماهية الفلسفة

"إن الخطر الأكثر مكرا وشراسة الذي يهدد الفكر، هو الفكر نفسه، إن عليه أن يفكر ضد نفسه، وهذا ما لا يستطيعه إلا نادرا. أما الخطر الأقبح والشنيع فهو الإنتاج الفلسفي".

M .Heidegger : l'expérience de la pensée

"ليس هناك من فكر إلا في حدود ما يجعله مستحيلا، إنه لا يكون إلا كتجربة لمواقع إحراج، أي كمرور عبر ما يحول دون العبور".

MF. Maurice : c'est-à-dire : poétique de Heidegger

يفترض في مدخلنا هذا أنه سيسعى على غرار كل المداخل، إلى التعريف بالحقل الذي يراد استكشافه، ومساندة منظور للقراءة والتأويل لا يصح اقتحامه بدونه. هذا صحيح مادامت المداخل تنطوي عادة على قصد مبيت، غالبا ما يكون وراء هذا النوع من الكتابات؛ فهي من جهة تريد أن تلفت الانتباه إلى الحقل المراد استكشافه، وتجلب الاهتمام به، ومن جهة أخرى، تريد أن تعين المواقع، والقضايا، وكذا المسالك، والخطوات التي يجب مراعاتها عند اقتحامه. فهي بهذا المعنى لا تريد أن تفرض قراءة وتأويلا معينا تزج بما عداه في دائرة الخطأ والضلال، وإنما تحديد الأولويات التي بدونها تكون كل قراءة باطلة. إنها والحالة هذه، وكما يدل على ذلك اسمها، تعيين للعتبات التي من المفروض دائما أننا نتجاوزها. ولكن، قبل أن نأتي على هذا التعيين، وذلك التحديد سنتساءل : هل هناك بالفعل قراءة باطلة؟

جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس
UNIVERSITÉ SIDI MOHAMED BEN ABDELLAH DE FES

حتى لا ندخل في متاهات أصناف القراءات، وأدبياتها، سنجيب باختصار: إن القراءة الباطلة هي التي لا تتم من موقع أصيل، إنها قراءة لا مسؤولة، حتى وإن تجاوزت التسلية، وقتل الوقت إلى التثقيف، والبحث عن "حكمة" ما للاسترشاد بها في الحياة العملية. والحال هذا يدعو للاستنكار. إذ ما الذي يرجى من القراءة بعد هذا؟ وأي قراءة جادة وأصيلة تلك التي لا تبحث لها عن المنفعة؟

أن تبحث القراءة عن المنفعة، فهذا لا يمكن استبعاده، وإلا سقطنا في العبثية. ولكن أن تضحي القراءة بقلقها وأسئلتها من أجل الكون إلى اليقين، وجلب "الربح السريع"، فهذا ما يجعل منها قراءة زائفة، لأنها في هذه الحالة تكون فريسة سهلة لأوهام "الأيديولوجيا"، تقتات ما هو ظرفي، وآني على حساب الجهد المضني الذي يقتضيه ممارستها للتفكير؛ تسعى للامتلاء بأقل جهد ممكن لتسد فراغها الأصلي. إنها قراءة تتوقف عند حدود الانطباع السلبي، لا تكاد تحفل بآرائها لوقت وجيز، حتى تكتشف ما يشوبه من نقص وعوز. قراءة تبحث عن حلول، وأجوبة جاهزة، لا تكلف نفسها عناء مشاركة من يقدمها عناء السؤال؛ وحتى إن هي فعلت، فانطلاق من أسئلة موهومة لا حياة فيها، وبالتالي فهي قراءة تجري في شبه غيبوبة، مردها إلى غياب السؤال الحق كحركة، وانفتاح، وطلب،.. لا سيما، وأن الأسئلة لا تكون إلا بالقدر الذي تكون فيه أسئلة حقيقية. وإذا أخذنا بعين الاعتبار المدخل الذي نحن بصدده، فإن القراءة المقصودة هنا ليست قراءة مجانية، مادام اهتمامها ينصب على الفكر، وأعمال المفكرين، بحيث يفترض فيها أن تكون منتجة، ولو في حدود الاطلاع، تبين لنا مدى مسؤوليتها، لأنها بهذا المعنى الذي يجعل منها قراءة زائفة تكون أيضا قراءة لا منتجة، أي أنها تتوقف عند حدود الاستهلاك المجاني لتعدم نفسها كقراءة بفعل ذلك.

الاقتصار على الاستهلاك، وعدم الإنتاج، نتيجة حتمية لعدم التموقع في موقع أصيل، منه تستمد المسؤولية التي تجعل من القراءة – كل قراءة حتى ولو اقتصرت على كونها مجرد مطالعة – قراءة أصيلة من منطلق المشاركة في " التفكير مع ..." بصدد موضوع التفكير الذي يكون العمل (l'œuvre) مجرد أثر له، وذلك لإنتاج المقروء من أصله في أسئلته، وأجوبته. هذه المشاركة، وهذا الإنتاج، وهذه المسؤولية التي نقصدها هنا تشكل في حد ذاتها تملكا أصيلا لـ"ذات"، القراءة لـ"ذات" العمل، ولـ"ذات"الفكر نفسه.

هذا التملك هو ما يجعل المهم في القراءة ليس هو ما يجعل المهم في القراءة، وليس هو استنتاج الآراء واستعراضها، وإنما التنازع فيما يقال، والخوض مع القائلين في هذا الذي انطلاقا منه يتحدثون.

هذه القراءة التي تفطن إلى حقها في الأصالة لتمارس مسؤوليتها، وتكون قراءة متملكة، ومن تم منتجة، ولو في حدود ممارستها كاطلاع، لا تكون خالية من المقاصد، بل إنها تبحث أيضا عن أجوبة، ولكنها، وبحكم موقعها الأصيل، ومشاركتها الفعالة في إنتاج أسئلتها الحية، تدرك أن الجواب الحق، يستمد حمولته من ديمومة السؤال، وأنه ليس إلا بداية للمسؤولية حيث المساءلة تستيقظ بشكل أصيل، وحيث السؤال لا يعدمه الجواب المقترح.

ما يميز القراءة الأصيلة إذن، هو انتقاء الحدود بين كيانها، وذات العمل المقروء، بمعنى أنها تقيم في نف الدائرة التي يرمها العمل لنفسه لتستمد أسئلتها مما كان أصلا لنشأته. إن هناك دائما ثمة أرضية، أو قضية تشد القارئ إلى المقروء. هذه الأرضية أو القضية هي التي تشكل المقروء الأصلي؛ بحيث لا يعدو العمل أن يكون في حالة كونه أصيلا ثمرة مجهود قراءة أولى أصلية، وأصيلة له. وما قراءة العمل في هذه الحالة إلا مشاركة في فعل إنتاج تلك القراءة التي يمكنها أن تكون سوى محاولة انشداد إلى مرجعية، هي بمثابة تلك النقطة المركزية في العمل، من حيث هي العمل كأصل، تلك التي لا نستطيع بلوغها مع أنها تظل ما هو جدير بتحمل مشقة وعناء محاولة الوصول إليه.

القراءة الأصلية إذن بحث مستمر عن موقع أصيل منه تستمد صفتها تلك، وبما أنها كذلك فهي تستند إلى شرعية السؤال الذي هو كنهها وأرضيتها. ولأن السؤال قلق وغياب، أي بحث دؤوب عن أرضية لا تمثل فيه إلا باعتبارها انفتاحا مستمرا على... ما يجعل من المستحيل انعدامه، لأنها هي ذاته، فإن القراءة الأصلية لا تكون أصيلة بالفعل، إلا إذا كانت عملا على تحديد لوضعية " الذات/ السؤال"، في كيفية اقتحامه لها. إن معناها قبل كل شيء هو بلوغ الموقع ورسم معا تلك الإقامة، الشيء الذي يقتضي أيضا أن نحرص على هذا الموقع بحيث نرابط فيه هاتان الخطوتان: تحديد الموقع والحرص عليه، هما المسار، والنهج الذي يهيئ لوضعية ما ... أو الموقف عندما يستجيب لمسار حق يؤول إلى سؤال؛ وهذا السؤال بدوره يطرح باتجاه الربع الذي ينتمي إليه الموقع.

يبدو أن القراءة الأصلية هنا، وبإنجازها لما يجعل منها قراءة مفكرة تصطدم بما يشبه الدور. إلا أن هذا الاصطدام بالدائرة يكون بالنسبة لها إيدانا بملامستها لشيء

أصيل، من حيث تكون انطلاقتها، والذي لا يمكنها تجاوزه إلا لتعود إليه. أو لنقل إنها كلما كانت أكثر أصالة كلما كان مصيرها في الرجوع إلى ذاتها أكثر صفاء. ابتعدت الدائرة التي تصفها في هذا بذلك الدوران إلى حد الإشراف على العدم. والحال أن هذا الدوران مرده إلى كونها تفكر في موضوعها من زاوية العلاقة التي تقحم بالضرورة ومسبقا كل العلاقات .علاقة العلاقات هذه هي تلك العلاقة الباطنية التي تقيمها مع ذاتها كسؤال لا تكون إلا به، ألا وهو ذلك السؤال الوحيد الذي يأتي دائما لينطرح من حيث هو سؤال على نفسه في قلب المجال المفتوح الذي يحدده. إن هذا هو ما يجعل القراءة الأصيلة تحس، وهي تحتفي بكامل وعيها بمقروئها عبر طرحها للسؤال الأصيل، بأنها في عقر بيتها. وبتعبير أدق إنها تضمن حياتها و سيادها حتى وإن كان ذلك يتم عبر الفناء فيه من فرط التفاني من أجله.

من الواضح إذن أن انجاز الموضعة أو الموقعة بفعل تعيين الموقع والحرص عليه، هو ما به تصون القراءة الأصيلة نفسها من الانزلاق إلى القراءة الزائفة، التي ترافقها كالآخر القاطن في صميم ذاتها؛ خصوصا وأن هناك غياب فعلي للحدود، بمعنى أنه لاشيء يفصل ما هو زائف عما سيكون أصيلا بالفعل. لهذا السبب فالقراءة الأصيلة لا تعطي لنا مباشرة، أي أن تحديد موقعها وانجاز موقعتها ووضعية ذات السؤال فيها، شيء ينجز ويغزا كقضية للفكر، وكمهمة للتفكير ضدا على القراءة الزائفة كغياب لهما وكتمويه للحدود. وبتعبير قد يكون تبين لنا الآن مدى انتسابها لنا، سنقول:كنسيان للوجود.